مسرح وسينما

صندوق الدنيا

تأليف : الاستاذ توفيق الحكيم إخراج : الأستاذ سعيد أبوبكر
تمثيل : فرقة المسرح المصرى الحديث

للأستاذ على متولى صلاح

لا أدرى من الذى أطلق على هذه التمثيليات القصيرة اسم « صندوق الدنيا » ؟ أهو المؤلف ؟ أم المخرج ؟ وسواء أكان هـذا أم ذاك فإن الشيء الذى لا شك فيه هو أنه إنما أريد بهذه التسمية جلب المتفرجين، فإن كلمة «صندوق الدنيا » كلمة شعبية لها استدعاء خاص فى نفوس سواد الناس الذين كان هذا الصندوق الخشبي يبهرهم ويستهويهم عندما يطوف بهم فى القرى والمدن وهم أطفال يدرجون

ولو أنهم سموه « صندوق العجائب » لكانت التسمية أدنى إلى الصدق ؛ فإن الذى طلع به علينا هذا الصندوق إنما هو من الخوارق العجائب حقا :

وهل نشاهد فى حياتنا الدنيا كثيراً من أمثال « صالح بك زهدى » الذى يحتقر المال ويزدريه وهو ومن يعولهم أحوج ما يكونون إليه ؟ أو هل نرى كثيراً من أمثال « سهام » تلك الفتاة التى ملأت نفسها شهوة القتل وتأججت بها فؤادها وملكتها « رغبة جامحة وقوة قاهرة تدفعها إلى أن تقتل شخصاً » كما تقول ؟ أو هل نرى كثيراً من أمثال « عبد الغنى بك » البخيل الذى أربى على البخلاء العالمين الأفذاذ من أمثال « الكندى » « وليلى الناعطية » بخيلى الجاحظ ، و « هارباجون » بخيل موليير ، و « شيـــلوك » بخيل شكسبير ، و « أوجين جراندية » بخيل هونوريه دى بلزاك ؟ إن هـذه الشخصيات فلتات فى الحياة الدنيا ، ولكن الرغبة فى ازدحام المسرح بالناس هى التى أدخلتهم «صندوق الدنيا»

ولا أدرى لماذا يتشبث الأستاذ توفيق الحكيم بأن يصف هذه التمثيليات المتفرقة باسم « مسرحية » ويأبى جاهداً إلا أن تكون مسرحيـة واحدة رغم ما بينها جميعاً من « كمال الانقطاع » كما يقول رجال البلاغة ؟ مع أن المسرحية القصيرة أكثر مشقة على المؤلف ، وأشد تضييقا عليه بحكم قصرها وقلة أشخاصها ومناظرها عن المسرحية الطويلة ، وتوشك المسرحية القصيرة أن يكون لها القدح المعلى فى العصر الحديث ؟ أغلب الظن أن المؤلف لم يجد بدا من هـذه التسمية وهو يقدم هذه الفصول إلى وزارة الشؤون الاجتماعية ، أو أنه استشعر الحرج إن هو سماها باسم جديد لم يألفه الناس فجنح إلى السلامة وتكلم باللغـة المألوفة عند الناس — وهو يضمر غير ذلك — ثم أخذ يبحث عن الأسباب هنا وهناك ! وأخذ يؤكد للناس أن الحكمة فى جمع هذه الصور المتعددة فى صعيد واحد أن ذلك « مما يساعد على إظهار صور المجتمع فى أوضاعه العديدة المختلفة» وذلك قول مردود ؛ فليس المهم فى المسرح أن تكثر العروضات وتزدحم الموضوعات فهذا ميدانه الملحمة لا المسرحية ، وقد يتناول المؤلف المسرحى غريزة واحدة أو معنى واحدا فيقيم عليه مسرحية ضخمة ، تنبثق منها العبرة ، ويفيض على جوانبها الفن والجمال، كما فعل شكسبير مثلا حيث تناول غريزة « الغيرة » فأقام عليهـا مسرحية عطيل ، وغريزة « الجشع » فأقام عليها مسرحية مكبث ، وغريزة « الانتقام » فأقام عليهـا مسرحية هملت ، وغريزة « الحماقة » فأقام عليها مسرحيـة الملك لير ، والمسرح « لقطة » واحدة من الحياة تعيشها ساعتين أو ثلاثا متحداً مع ما تراه ، مندمجا فيه بقلبك وعطفتك ، وليس المسرح « معـرضا » كبيرا أو « موكبا » ضخما يمـر بك وأنت منفصل عنه تراه بنظرك ولا يستطيع قلبك وعاطفتك أن يتابعاه !

ولقد كتب الأستاذ توفيق الحكيم هذه المسرحيات بلغة أقرر أنها لغـة المسرح حقا ، كتبها باللغة العربيـة

السمحة السهلة الشرقة التى لا تعلو على أفهام السوادالأعظم من الناس ، والتى لا تزيد على ما يتكلمونه إلا خطوة ضئيلة هى أقصر خطوة — فيما نعرف — بين العامية والعربية ، وذلك أمر ليس — كما يتصوره البعض — سهلا ميسوراً ؛ فإن تقريب العربيـة إلى العامية مع المحافظة على سلامتهـا ونقائها وإمكان أن يفهمها النـاس جميعا ، أمر فوق أنه لا غنى عنه فى لغـة المسرح ، فهو عسير غاية العسر ، وقد استطاعه — إلى حد كبير — صديقنا الأستاذ توفيق الحـكيم كما استطاعه صـديقنا الأستاذ على أحمـد باكثير

هذا أمر أشهد به ويسرنى أن أشهد به ، وأرجو أن يعلم المؤلفون المسرحيون أن الجزالة والفخامة وضخامـة الألفاظ وغرابتها ليست من المسرح فى شئ .. وإن كنت ما أزال أرجو المزيد من الأستاذ توفيق الحـكيم ؛ وآخذ عليه بعض كلمات كان الأولى أن يتجنبها ، كقوله « مقدم الصـداق » ولو قال « المهـر » لـكانت أيسر ، وكقوله « إننى أثيرة عندك » ولو قال (إننى مفضلة عندك أو إننى عزيزة عليك » لـكان أقرب ، وكقوله « وهـكذا دواليك » وهذه عسيرة جدا على المسرح ولوقال « وهكذا تدور أو هكذا تمضى الأيام » لـكان أخف كثيرا . على أننى أرجو كذلك أن يجمع الأسـتاذ إلى سهولة اللغة سلامتها من فسـاد قد يكون أضفاه عليها العرف، فهو يقول مثلا « إن رزقه محدود لا يكاد يكفى لفتح هذا البيت » وكله « فتح بيت » هذه قد أعطاها العرف معنى غير كريم فكان الأولى أن يتجنبها المؤلف ... ولقد أسلم المؤلف هذه المسرحيات بانتها السمحة السهلة التى يقرؤها النـاس فى كتابه « مسرح المجتمع » إلى ممثلين أبوا — كما حـدثنا الأستاذ المؤلف — إلا أن ينزلوا بها إلى العـامية اعتقادا منهم أنها عسيرة على أفهام الناس وأنهـم لن يستطيعوا متابعتها ، وقد ينتهى ذلك بالإعراض عنها ، ولـكنهم فى ذلك جد مخطئين

أما المسرحية الأولى « دنيا المبادئ » فتقوم على رجل لا تستهويه المادة وهو أشد الناس حاجة إليها ، رجل يؤثر الفضيلة والأخلاق على أعراض الحياة ؛ ويؤمن إيمانا عميقا بالمثل العليا ولو جلبت له الفقر ولذوبة الحاجة والحرمان ويذكرنى هذا الرجل الذى قدمه لنا توفيق الحـكيم فى مسرحيته هذه وأعنى به « صالح بك زهدى » برجلين قدمهما لنا من قبل الـكاتبان الشهيران : موليير وهنريك إبسن ، فقد قدم لنا الثانى (دكتور ستوكمان) وهـذان الرجلان وصاحبهما الجديد (صالح بك زهدى) يقفون من الحياة موقفاً واحداً ، ويتخذون صفات واحدة ، وإذا عرفت أحدهم فقد استغنيت عن صاحبيه !

وليس فى هذه المسرحية بناء مسرحى على الإطلاق ، وإنما هى حوار طويل جداً بين رجلين استغرق فى كتاب الأستاذالمؤلف اثنتى عشرة صفحة كاملة لا حركة خلالها ، ولعل الأسـتاذ المؤلف قد استشعر الملل الذى استشعره النظارة ، فأراد أن يكسـر حدته بأية حركة ، فأدخل الخادم بصينية القهوة بعـد تسع صفحات كاملة ! على أن المخرج مسئول عن ذلك أيضا ، فالمخـرج ينبغى أن يكون أكثر إحساساً بعواطف الجمهور من المؤلف ، والمخـرج ليس آلة صماء فى يد المؤلف ، ولـكنه متمم له يستدرك مايفوته ، ويكمل ماينقصه . ولم يكن بطل هـذه التمثيلية وأعنى به « حمدى غيث » يمثل وإنما كان يخطب ! وتلك النزعة إلى الخطابة تلازمه كثيراً ، ويبدو أنه يجد فيهـا نوعا من التميز والتفرد والبروز على إخوانه ، وأنا أرجو أن يحد من من هـذه النزعة المسيطرة عليـه ، وأن يلبس لـكل حال لبوسها قبـل أن يستحيل إلى يوسف وهبى آخر ! وإن لم يستطع فليعتزل التمثيل إلى سواه ...

وأما المسرحية الثانية « دنيا الوفاء » فتقوم على أزمة نفسية خطيرة ملأت قلب فتاة شابة هى « سـهام » ... أزمة الرغبة الجامحة فى القتل ، رغبة « ليس باعثها الانتقام بل لا باعث لهـا على الإطلاق . إنها شـهوة القتل لذاتها مجردة عن أى باعث » إن هـذه الفتاة كما صورها المؤلف

« فتاة تصوم وتصلى ويتمزق قلبها رحمة بالطفل البائس ابن الكناس فتصنع له بيدها ثوباً يكسو عريه ، فتاة حسناء وديعة مثقفة ، لاتطيق سماع مواء قطة جائعة . ولكنها مضطرة برغبة جامحة إلى أن تقتل شخصاً ، وما تكاد تنفرد بخادم فى المطبخ وفى يدها سكين حتى تلمع عيناها ببريق غريب وتهم بطعنه » هذه هى فتاة توفيق الحكيم .. فتاة يرثى لها ويشفق الإنسان عليها ، فلما تسلمها منه الممثلون أحالوها إلى فتاة مضحكة ترفه عن النظارة وتسرهم بما تأتى من حركات بهلوانية متكررة طويلة !

على أنى أسأل الأستاذ المؤلف لماذا سكتت ثائرة الفتاة فى النهاية مع أن القتل لم يتم ؟ وهل يكفى لتسكين هذه الثورة الجامحة أنها « اعتقدت أنها قتلت » كما يقول الأستاذ مع أنها تبينت الأشخاص الثلاثة الذين صوبت إليهم مسدسها فوجدتهم فى سلام ؟ وتبينت كذلك أن مسدسها كان محشوا بالبارود الذى لا يقتل ؟ لو أن المؤلف جعل الفتاة تولى الأدبار عقب إطلاقها مسدسها مباشرة ودون أن تتبين شيئاً مما حدث لكان أدنى إلى المعقول وأقرب إلى منطق الأشياء ، لأن الفتاة كانت تعتقد حقا أنها قتلت

وآخذ على الأستاذ المؤلف أنه يفسر موقف الفتاة فيقول « آه .. لقد قتلوا فيك روح الحياة ، فحل فيك حب الموت » وذلك بعد تمهيد مفتعل ليؤدى إلى هذا الكلام . وهذا التفسير اللفظى ليس من المسرح فى شئ ، فالمسرح تفسره الأفعال لا الأقوال كما يعلم الأستاذ ، وإنما يحتاج إلى الكلام إذا لم تستطع « الأفعال » وحدها أن تقوم بالتفسير والإفهام !

وأما المسرحية الثالثة « دنيا الأعمال » فهى أدنى هذه المسرحيات إلى واقع الدنيا ، وتقوم على صورة من الاتصالات غير الشريفة بين الشركات وبين رجال الحكومة الذين يسترون أعمال هذه الشركات فى دور الحكومة نظير سهرات لطيفة ، ورشاوى و « إكراميات » طريفة ، وهى مسرحية تقوم على مشاهد مألوفة كثيراً لدى رواد المسارح ، والحوار فيها حسن ، والدور الذى قامت به « سناء جميل » وهو دور المغنية المتبذلة كان شاقا وقد أحسنت القيام به إلى حد كبير ، غير أنها لم تخف تبذلها بعد حضور زوجة الرئيس وتقديمها إليها على أنها زوجة مدير الشركة رغم هذا ! وأعجب من هذا وذاك ألا تكون بهذه الشركة الكبيرة حجرة للاستقبال فتدخل زوجة الرئيس إلى حجرات صغار الموظفين والمفروض أنها مشغولة بهم لولا المصادفة !

أما المسرحية الرابعة «دنيا المال» فتقوم على شيخ بخيل يذكرنى بصفة خاصة بها رياجون بخيل « موليير » .. ولا أدرى كيف ينسى هذا البخيل العتيد أن يجعل للتليفون قفلا ويتركه لخادمه مفتوحا فى حين أنه أوثق الرتاج على الباب والسكر ! ولا أدرى كيف يبقى خادمه « بسطويسى » عنده عشرين عاما متوهما بأن له فى « الوقفية » نصيباً وهو أدرى الناس بسيده وبكاذب وعوده ؟ ولا أدرى لماذا يأتى « عدلى كاسب » بحركات جنسية كثيرة جدا لا مدلول لها فى تصوير هذا البخيل ؟ ولا أدرى لماذا لم يظهر « عبد الرحيم الزرقانى » و « كمال يس » فى صورة الكهلين الجليلى النظر كما أرادهما المؤلف ؟ ولماذا يكره الناس الكهولة حتى فى التمثيل ؟

وبعد : فهذه كلمة عرضنا فيها المسرحيات الأربع التى ألفها الكاتب الكبير الأستاذ توفيق الحكيم ، ونجمل الرأى فيها بأنها خفيفة الظل جيدة الحوار حسنة اللغة ، وأنه كان من سوء حظها أن وقعت فى يد مخرج ناشئ لا يكتفى بأن يكون ممثلا ولا يرضى إلا بأن يكون مخرجا أيضا رغم عدم توفر الوسائل لديه ، ووقعت فى يد ممثلين كانوا أضعف من المسرحيات كثيرا

على شوقى ضيف

٤٠٥٣